مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
العدد الخامس/ جوان 2017

Mila Univ center. Publish. Co.

تفاعل الشعر والسياسة: قراءة في الشعر السياسي الجزائري الحديث

The interaction of poetry and politics : read in the Algerian political modern poetr)

د. ابراهيم لقان – المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف ميلة - الجزائر

تاريخ الاستلام: 2016/12/15 تاريخ قبول النشر: 2017/05/30

الملخص :

تضمنت هذه الدراسة جملة من القضايا السياسية تفاعل معها الشعراء الجزائريون زمن الحركة الوطنية وعالجوها في شعرهم، متخذين من الكلمة وسيلة للمنازلة. فقد لعبوا دورا كبيرا في تنوير الشعب الجزائري بخطر الاستعمار على كيانه المادي والمعنوي، من خلال مواكبة نشاط جمعية العلماء المسلمين.

لقد بلوروا الوعي السياسي و الوطني والثوري للشعب، متجاوبين مع القضايا السياسية ذات العلاقة بالثورة التحريرية، متحدثين عن مجلس الأمن، وعن النيابة والأحزاب السياسية، وعن وحدة المغرب العربي. و رسموا له ملامح الرؤية السياسية القادمة، فأعادوا ربط صلته بجذوره التاريخية العربية الإسلامية، ومتّنوا علاقته بالأمة العربية من خلال قضية العرب المركزية (تحرير فلسطين).

الكلمات المفتاحية: تفاعل، الشعر السياسي، الجزائري، الحديث.

Abstract :

The present study is involved a number of political issues addressed by the Algerian poets in the national movement's period. They have used their poetry as a way for fighting. In addition , they played a great role in making the Algerian people award of the colonization risk affecting their physical and moral existence through coping with the activity of the association of Muslim Scholars.

They also crystallized their national and revolutionary political consciousness responding to the political issues related to the liberation revolution. They talked about the security council, the prosecutors, the political parties, and the Unity of the Arab Maghreb. They also drew the features of the coming political vision for them; and thus, they revived their relationship with their historical Arab and Islamic roots. They strengthened their relationship with the Arab's central issue (liberation of Palestine).

Key words: *interaction, political poetry, Algerian, modern.*

مقدمة

كانت المقاومة الجزائرية للاستعمار فعلا مستمرا، لم تهدأ يوما ولم ينعم الاستعمار بالاستقرار، فقد قامت عدة ثورات وانتفاضات شعبية كثيرة، كان مآلها الفشل وتمكن الاستعمار من إخمادها لجملة من الأسباب، منها كون هذه الثورات أو الانتفاضات جهوية غير منظمة، تفتقر إلى صفة الشمول، ولا تملك رؤية واضحة تضمن لها الديمومة.

لكن إخماد هذه الثورات لم يكن ليقضي على عزيمة الشعب الجزائري الذي تمرس على ذلك على مرّ السنين، فكان يغير أساليب المقاومة ووسائلها تبعا للظروف المحيطة به محليا وإقليميا ودوليا، فبعد عشرينيات القرن الماضي التي تعتبر "ملتقى التجارب السياسية والإصلاحية، ومختبر الحركات الوطنية بمختلف اتجاهاتها "[1]، استفاد الجزائريون من الظروف العالمية "وبدأ الوعي الفكري والسياسي أو الخصوصية الجزائرية، فقد بدأ يتشكل سريعا وفق الوطني الماثل في الحركة الوطنية الصادقة. وفي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو الوعي الذي تشكل في ظله الوجدان الثائر المتمرد الذي آل إلى الثورة على فرنسا"[2]. وبدأت المقاومة تأخذ طابعا سياسيا تمثل في ظهور حركات سياسية وجمعيات ظاهرها ثقافي وباطنها سياسي، أثبت الجزائريون من خلالها أنهم شعب صاحب أرض سلبت، وحقوق اغتصبت، وهم يعملون على إيصال صوتهم لكل حر في العالم لِيُقِرَّ

بهذا الحق، ويساندهم في استرجاعهم له بالطرق التي تمليها عليهم الظروف حتى ولو بالثورة الشاملة التي استغرق الإعداد لها وقتا طويلا.

وقد تمثلت هذه الطرق في النضال السياسي الذي قادته الحركات السياسية التي تحولت إلى أحزاب، والجمعيات الثقافية التي أصبحت تمارس السياسة، فتضافرت جهود الجميع من أجل هدف واحد هو تحرير الجزائر.

وقد تفاعل الشعراء مع هذه الجمعيات الثقافية والحركات السياسية، وتجاوبوا مع الأحداث التي قامت بها، فقد انضوى مفدي زكريا تحت لواء (حزب الشعب) وكان ينشط فيه منذ تأسيسه، أما محمد العيد وأحمد سحنون، ومحمد السعيد الزاهري فقد كانوا جنودا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد واكب شعرهم مختلف نشاطاتها الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وكان ملتزما أشد الالتزام بتلك القضايا كما رأى يحي الشيخ صالح:" فقد كان الشعر ملتزما إلى أبعد الحدود، إذ غرق في خضم القضايا الوطنية والقومية".[3] وكانت أهم الوسائل المتاحة لأولئك الشعراء هي الكلمة، التي كانت سلاح الكثير من "المؤمنين بقيمة الكلمة المسئولة المناضلة وبالشعر قضية مقدسة"[4]، فقد لعبت الفنون الشعرية دورها في تنوير الشعب الجزائري بخطر الاستعمار على كيانه المادي والمعنوي، وبلورت وعيه الوطني والثوري، وبدأت ترسم له ملامح الرؤية الاجتماعية والسياسية القادمة، فربطته بجذوره التاريخية العربية الإسلامية، ومتّنت علاقته بالمغرب العربي، وواكبت الأحداث السياسية على الصعيد الوطني، وعلى الصعيد العربي في قضية العرب المسلمين المركزية (فلسطين).

أولا – الشعر ومواكبة نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

يعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حدثا بارزا فقد بدأت هذه الحركة نشاطها وفق أهدافها المسطرة (إصلاحية اجتماعية ثقافية) ولكنها استطاعت أن تتكيف مع الظروف والمستجدات، فعندما قَوِيَ ساعدها واشتدّ ورأت أن الوطن في خطر، و أن وحدَتُه مهددة وهويته في طريق الذوبان، أصبحت تمارس السياسة وتتجاوب مع الأحداث، "أصبحت الجمعية تخوض في السياسة مع أن قانونها الأساسي يمنع ذلك بصريح اللفظ، وأصبحت تدلي برأيها في الأمور التي تطرحها بعض الجهات الأخرى، وتتحمس لهذا الرأي إذا كان له مساس بشخصية الوطن التي تعتبر الجمعية نفسها سادنة على تلك الشخصية"[5].

وإذا أردنا الحديث عن الالتزام السياسي في الشعر الجزائري الحديث، فإن ذلك يتجلى بشكل واضح في نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين "فقد كان الشعراء يتغنون زهوا بتشكيل الجمعية ويعبرون عن سرورهم بوجودها، فيرصدون نشاطاتها، ويتابعون أعمالها"[6]، يقول محمد السعيد الزاهري في هذا الشأن:

حيّ العروبة في جمعية العلما وحيّ ويحك فيها الدين و الشّيما
جمعية أخلصت لله نيتها وللبلاد فكم ذا تبذل الخدما
هذي الجزائر كانت في الورى عدما بين الشعوب، ومن ذا يبعث العدما؟[7]

ثم يضيف الزاهري مبينا الوجه الجديد الذي أصبحت عليه الجزائر بعد الدور الريادي الذي قام به العلماء في محاربة الجهل والجفاف الثقافي الذي كان يخيم على البلاد:

ومذ أتى علماء الدين واندفعوا يستنهضون إلى إصلاحها الهمما
ويعملون على نشر العلوم بها أضحت تشابه في أعمالها الأمما[8]

ولمفدي زكريا موقف إيجابي من نشاط الجمعية لا يختلف كثيرا عن موقف الزاهري، فعند تدشين (دار ابن باديس) للطلبة التابعين لجمعية العلماء بقسنطينة سنة 1953م، أشاد مفدي زكريا بالجمعية وبما تقدمه من أعمال جبارة للثورة الجزائرية معتبرا أن الآمال أصبحت معلقة على الجمعية ما دام الرجاء قد خاب في غيرها[9]:

جمعية العلماء المسلمين، ومن للمسلمين سواك اليوم منشود؟
خاب الرجا في سواك اليوم، فاضطلعي بالعبء، مذ فرّ دجال ورعديد
سيروا، ولا تهنوا فالشعب يرقبكم وجاهدوا، فَلِواء النصر معقود
أمانة الشعب قد شدت بعاتقكم فما لغيركم تلقى المقاليد[10]

وينتقل بعد ذلك إلى التنويه بدار ابن باديس التي أسست على التقوى، وحملت آمال البلاد، هذه الدار التي يأمل الشاعر أن يتخرج منها من يدافع عن شرف الأمة وقداسة الدين ويحرر الوطن فيقول:

يا دار، أنت على التقوى مؤسسة مبناك بالطهر، مرصوص، ومشدود
يا دار حُمِّلْتِ آمال البلاد، ففي أحشائك اليوم، أشبال صناديد
(دار ابن باديس) في سرتا، يظللها نصر، ألا إن نصر الله، موعود

ما بين جدرانها تحيا الجزائر، لا من فوق جدرانها، تُتلى التهاجيد[11]

ويتجلى الالتزام السياسي في هذه الأبيات بما تتضمنه من رسائل موجهة إلى الجيل الذي تعده هذه الجمعية، وما تنتظره الجزائر منه.

أما محمد العيد آل خليفة فكان شاعر الجمعية دون منازع ولسان حالها، وكان يحيي بحماسة شديدة أعمالها و من تلك الأعمال: المؤتمر الإسلامي 1936م، الذي حضره الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان هذا المؤتمر أملا للشعب الجزائري، وحدثا عظيما روجت له الصحافة آنذاك "وتتجلى أبعاد المؤتمر في التلاحم الشعبي الذي شهدته الجزائر ذاك اليوم، ولقد كان الشعر أصدق صورة لهذه الأبعاد"[12]، فقد نظم الشاعر أكثر من قصيدة في هذا الشأن، فقد خلّده يوم انعقاده لأول مرة بقصيدة طويلة، تبدو فرنسا فيها مانحة للحقوق، ويظهر الشاعر من خلالها مبتهجا معلقا الآمال، تشيع في قصيدته نبرة الفرح والسرور، يخاطب الوفد بأن يتوجه إلى باريس باب الأمل ليلق عطفا وودا، ويكسب حمدا، يقول في قصيدة (يا وفد):

صادف رضى والق رفدا يا وفد بوركت وفدا
أمّ باريس ركبا باليمن تحدو وتُحدى
باسم الجزائر فاسأل باريس لا تخش ردا
غدا بباريس تلقى عطفا وتكسب حمدا
غدا ستسمع فيها صوت العدالة يصدى
وابسط مطالب شعب نادى بها واستعدا[13]

وقد اتسمت صورة الفرنسي في هذه القصيدة بالمفاوض الذي يرجى منه الأمل"[14]، فقد بدا في أول الأمر مفاوضا واعدا ببعض الحقوق، نجد ذلك في حكومة اليسار منذ 1936م "هذه الحكومة التي شدّ بعض الجزائريين الرحال إليها في ظل بدايات فكرية وسياسية وحضارية وطنية ضعيفة، حالمة آملة، تتشوف إلى غايات ترجوها"[15] ولنتأمل هذه الأبيات من قصيدة (يا فرنسا) التي ألقاها عام 1936م :

يا فرنسا، بك الجزائر لاذت و أكنّت لك الولاء الشديدا
فاز فيك اليسار فاليوم لا عسر أليس اليسار فألا حميدا
يا فرنسا، رُدّي الحقوق إلينا وأقلّي الأذى وكُفّي الوعيدا
فدعي الماضي الحزين بما فيه وهاتي الغد الرضي السعيدا[16]

لكن نظرة الشاعر إلى سياسة فرنسا تغيرت جذريا، فقد غدت هذه السياسة غشا وغدرا، ودسا وتدليسا، ومماطلة وتضليلا، يقول في قصيدة (يوم الشعب) التي ألقاها في الذكرى الثانية للمؤتمر الإسلامي سنة1937م:

ولعل من نضم السياسة أن نُغش ونُـغر
ولعل منها أن يدس لنا ونحذب للحفر
ولعل منها أن نماطل كي يساورنا الضـجر
كُفَّيْ فحكمك يا سياسة في الورى سوس نخر
وإليك عنا يا فجـار فليس فينا من فجر[17].

لقد وصل الشعراء الجزائريون إلى هذه القناعة بصورة فرنسا المخادعة أثناء الثورة التحريرية بعد الوحشية المدمرة التي كشفت عنها فرنسا، من خلال جنودها المدججين بسلاح الحلف الأطلسي، فكان للجزائريين أنكى أنواع التعذيب والسجون والمعتقلات والمحتشدات، ومن خلال هذه الوحشية جاءت صورة فرنسا في الشعر مفدي زكريا الذي يمثل الريادة في هذا المجال كما سيبينه المبحث التالي:

ثانيا- الشعر والمؤسسات الدولية

تناول الشعر الجزائري قضايا سياسية كثيرة متعلقة بالثورة المباركة مثل مجلس الأمن الدولي، "هذه الهيئة التي عرفت القضية الجزائرية المد والجزر طوال فترة انقادها إلى غاية انتصارها، التفت إليها الشعراء، وتابعوا مواقفها نحو الثورة الجزائرية، ومهارة دبلوماسيتها، وإيمان أحرار العالم بها"[18]، يقول أبو الحسن علي بن صالح في قصيدة (مآسي وأين الآسي):

هل مجلس الأمن لا يقوى على عمل فينصر الحق أم يكفيه تأبين؟
يا مجلس الأمن إن الأمن في عطب فهل لديك دواء لا دواوين؟
يا مجلس الأمن أليس الأمن في خطب إذا الحقوق تداس والقوانين؟
تجنب الانحراف، احذر مغبّته فبانحرافك تختل الموازين[19]

أما مفدي زكريا فقد جرب السياسة وهو مناضل في صفوف حزب الشعب الجزائري، فنقرأ صورة الهيئات الأممية عنده، في كونها أكذوبة الغرض منها تضليل الشعوب الضعيفة، وسوقا تباع فيه حقوق الشعوب لنصابين لا يرعون للضعفاء حقا:

أكذوبة العصر أم سخرية القدر هذي التي أسست في صالح البشر

ما للدعايات لا تنفك صاخبة في الأرض تغمرها بالإفك والخور
و ما لهم نسبوا للعدل مجتمعا أمر الضعاف به في كف مقتدر
سوق يباع ويشترى في معابرها حق الشعوب لنصّاب و محتكر[20]

ويكشف الشاعر عن مفهوم السياسة الغامض لدى الغرب، وعن مواقف المجتمع الدولي الغريبة من قضايا الشعوب حيث يجد الظالم من يدافع عنه، وتخيب آمال الضيف هناك:

إن السياسة لا تزال تناقضا وحديثها أبدا حديث مبهم
والمجمع الدولي لغز غامض ما إن يحل على يديه الطلسم
يجد القويّ من القويِّ مناصرا ويخيب آمال الضعيف ويحرم[21]

ويصور الشاعر هذه المفارقات التي تحدث في مجلس الأمن حيث يجد الطغاة حصانة، وتنتهك حقوق الضعفاء، ويستعمل مجلس الأمن لتبرير العدوان على الدول الضعيفة والتعامل مع قضايا الشعوب بمعايير مزدوجة وتحويل المظلوم إلى ظالم:

وفي أمريكا للطغاة حصانـة وفي أمريكا تصرع القوة الحقا
وفي مذبح الأحلاف تزهق أنفس وتخنق أنفاس الشعوب بها خنقا
ويعقد باسم العدل للجور مجلس ويخرق باسم السلم ميثاقها خرقا[22]

ثم يتوجه مفدي إلى فرنسا الصليبية الحاقدة التي من سوء الأقدار على الشعب الجزائري ومن أعظم البلاء أن يشقى ليسعد غيره، ويجوع ويعرى والمعمرون يحتلون القصور الفاخرة، ويعيش طريدا أو يموت ليحيا غيره، فيصور هذه المفارقة :

أمن العدل صاحب الدار يشقى ودخيل بها يعيش سعيدا
أمن العدل صاحب الدار يعرى وغريب يحتل قصرا مشيدا
ويجوع ابنها فيعدم قوتا وينال الدخيل عيشا رغيدا
ويبيح المستعمرون حماها ويظل ابنها طريدا شريدا[23]

أما محمد الشبوكي فقد خبر السياسة، ورأى أن الشعب الجزائري جرّبها فترة طويلة فوجدها مجرد أوهام مضللة استعملها الاستعمار لعرقلة مطالب الشعب الجزائري، وتشتيت صفه، ربحا للوقت وإن المتمسك بها كمن يطارد السراب:

فما السياسة أجدت في مطالبنا ولا الشكاوي أفادت عبر ماضينا
إن السياسة أوهام مضللة ياطالما عرقلتنا عن مرامينا

وطالما أوهنت قوى جماعتنا وطالما شتت أحرار وادينا
وكم أضعنا من الأوقات أثمنها وكم لهونا فهل كُنَّا مجانينا[24]

ثالثا- الشعر والنيابة والأحزاب

أبان الشعراء الجزائريون عن وعي سياسي كبير في حديثهم عن النيابة والانتخاب والأحزاب، مع العلم أن الاستعمار قد أغلق باب التمثيل النيابي في وجه الجزائريين، ولم يفتحه حتى ضمنه ممثلا لمصالحه وبوقا لأغراضه وعينا على الحركة الوطنية، ولم يترك الأحزاب لتؤدي دورها السياسي، "وإنما سخّرها لتمزيق وحدة الشعب، فكان أثرها السلبي على هذه الوحدة يفوق أثرها الإيجابي في دفع الحركة الوطنية"[25].

وحين تألفت الأحزاب ودخلت معارك الانتخاب جعلت السلطات الفرنسية ذلك مجالا للصراع الدموي بين المواطنين، وملهاة للمحترفين السياسيين الذين يلهثون وراء كراسي النيابة لخدمة مصالحهم الشخصية أو مصالح الاستعمار، وطالما كان ذلك موضع سخرية من طرف الشعراء لاسيما محمد العيد و مفدي زكريا، يقول محمد العيد في هذا المجال متهكما بالنواب الذين وصلوا إلى مناصبهم باسم الشعب، ويفضح تناقضهم الصارخ بين الوعود البراقة أثناء الدعاية الانتخابية، والتنكر لهذه الوعود بعد الجلوس على الكراسي، ويتخذ من ذلك ذريعة ليكشف نوايا الاستعمار لتعطيل التعليم وتجهيل الشعب الجزائري:

أفدني برأي في النيابات هل حوت أساود في قاعاتها أم وسائدا؟
وإلا فما تلك السموم التي سرت فمن ذاق منها طأطأ الرأس هامدا؟
فيا نائبا ناب البلاد بحادث فخلّف شعبا قائما فيه قاعدا
على أي ظهر كنت سوطك منزلا وفي أي نحر سيفك كنت غامدا؟
وما لك ترغي في النيابة موعِدا ألم تك من قبل النيابة واعدا؟[26]

وفي القصيدة إظهار لوعي سياسي كبير بخبايا الاستعمار الذي يُزوِّر الانتخابات باختيار فئة من النواب سهلة الانقياد لمطالبه خاضعة لإغراءاته، يستخدمها لتمرير سياسته الخبيثة، في محاربة عناصر هوية الشعب الجزائري من دين ولغة، وحرمان هذا الشعب من نور العلم الذي يبصِّر النفوس بالحقّ، ويعمل على ترك هذا الشعب في حالك الجهل حتى يبقى لقمة سائغة في يد العدو يعبث به كما يشاء.

وفي قصيدة أخرى في نفس الغرض لا يرى محمد العيد في مثل هؤلاء النواب إلا مصائب نازلة على الأمة، ولا يرى في مثل هذه القيادات إلا أغلالا في رقاب الشعب

تحدّ من آماله وتزيد من آلامه، لأن هذه القيادات لم تنبثق عن إرادة وطنية حرة، بل صنعها الاستعمار الذي خاطها على مقاسه لنشر الفتنة والفرقة بين أبناء الشعب تطبيقا لمبدئه المشئوم (فرِّق تسُد) ، فهي له تَبَع، لا يهمها من أمر الشعب شيء، يقول محمد العيد:

يا بلادا ما للزعامة فيها قوة أو لزاعميها اتحـاد
النيابات كلها نائبات والقيـادات كلها أقيـاد
أُرغم المرشدون فيك على الصمـ ـت وبثّتْ عليهم الأرصاد
كم يلاقي من العقوبات حرّ ذنبه الوعظ فيك و الإرشاد[27]

و يتجلى صدق التزام هؤلاء الشعراء في معالجة مثل هذه القضايا والجرأة في قول الحق في وقت كان الاستعمار يتعامل بشدة مع الذين يحسنون الصمت عن قول الحق، ويتجرؤون على قول الباطل، وهذا هو الشعار الذي كان متداولا آنذاك "هذا زمن الصمت، فإذا تكلمت الباطل فستعيش، ولكنك إذا تكلمت الحق فستموت"[28].

وقد أدت الانتخابات إلى معارك حزبية وأصبح الشعب فيها يخوض حربا لا ناقة له فيها ولا جمل، وأصبح الصراع يمزق بقية وحدته وتماسكه تمزيقا يثير الشفقة، وصور الشعراء هذا الصراع ونبّهوا الشعب إلى خطره مذكرينه بعوامل وحدته من دين ولغة ووطن، يقول عثمان بن الحاج[29]:

بني الجزائر، ما هذا الشقاق، فكم جرّ الشقاق لكم يا قوم من عطب؟
هل من هُدى الدين أحزاب ملفقة وألف جمعية، حمـالة الحطب؟
ألستم إخوة والدين يجمـعكم والجنس يربطم مع لحمة النسب؟
أبوكم الدين والأوطان أمكم فراقبوا الله في أم لكم وأب

وقد تجاوزت هذه المعارك الحزبية السباب والشتم ووصلت إلى العراك والجرح والقتل "حتى أصبحت فتنة يستعجلها المستعمر بقدر ما يتهيبها المواطن، يوقد الأول ثقابها، ويصلى الثاني جحيمها، والعرائس المتحركة خيوطها في أنامل الدخيل، منه وإليه"[30]. وقد صور الشعراء هذا التجاذب السياسي، الذي يذكي الاستعمارُ نارَه ويصلاها الجزائريون، يقول حسن حموتن:

لِمَ يا ترى هذي العداوة بيننا وعلام هذا العض بالأنياب؟ !
إن النيابة للمعمر وحده هو ربها ومسيّر الدولاب[31]

ولا شك أن مفدي زكريا يضع النقط على الحروف في المأساة الحزبية والنيابة، ويعدد مظاهر بشاعتها، ويشير إلى ما آلت إليه السياسة في الجزائر من فوضى وإلى من تجسمت فيهم من أقزام وغربان وأبقار معممة، وإلى مجالات الصراع التي لم تتعد الجدران المملوءة بالشعارات، والمنابر التي يسودها التهريج، والمستعمر المتسبب فيها يجلس متفرجا، ينقل الشاعر إلينا كل ذلك في صورة كاريكاتورية ساخرة فيها جرأة منقطعة النظير[32]:

وفي الجزائر نصابون ، همهم على الدراهم مقصور ومحدود
وللزعامة دجالون ليس لهم من الزعامة إلا الخمر والغيد
وللشعائر هداجون، قد جثموا حول المقاصر أحلاس قنافيد
وفي المجالس أصنام، تحركها يد المعمر، تحميها التقاليد
وفي القيادة أبقار معممة للعار تدفعها غربانها السود
وفي الوظائف أخشاب مسندة لا يستجيبون للحسنى إذا نودوا
وفي الثياب ذئاب ليس يشبعها إلا دم الشعب، مسفوح فمصفود[33]

ويتجلى الالتزام السياسي لدى الشاعر بقوة في الأبيات التالية التي يصحح فيها المفهوم الخاطئ للسياسة لدى الكثير من الذين يمارسونها في ذلك الوقت، متجاوزا بذلك بعض مظاهر السلوك الشعبوي لبعض الزعماء من ضرب على الطاولات في الاجتماعات، وتشطير الكلام، واحتجاجات حماسية وشعارات تملأ بها الجدران، إن السياسة عنده فعل إيجابي، متعلق بالتجديد والبناء والتشييد، ومجهود يبذل ونضال في سبيل القضية الوطنية:

وما السياسة ضرب فوق مائدة إن السياسة إنشاء وتجديد
وما الزعامة أقوال وشقشقة إن الزعامة إصلاح وتشييد
وما النضال احتجاجات على ورق إن النضال كفاءات ومجهود
وما الجهاد جدار أنت تكتبه إن الجدار كبعض الناس جلمود[34]

لقد استمدّ الشعراء أقوى العبر من المعارك الحزبية وما كانت تؤدي إليه من فتن ضحيتها الشعب الجزائري دائما، ومن الوضع المنحرف للزعامة الجزائرية في ظل الاستعمار، فدعوا إلى الوحدة الوطنية وإلى تلاحم الشعب، وإلى التفطن لألاعيب الاستعمار، وإلى العمل الإيجابي البناء، ولم يدّخروا جهدا في تبصير الشعب بالعواقب

الوخيمة لهذا الانحراف، وتذكيره بواجبه الوطني المقدس الذي يسمو فوق هذه المهاترات الحزبية، والهدف البعيد الذي لا توصل إليه إلا التضحية.

رابعا- الشعر ووحدة المغرب العربي

يعد الشاعر مفدي زكريا متميزا في هذا الاتجاه، فهو أكبر شاعر عالج قضية وحدة المغرب العربي الكبير، وهي عنده تغدو عقيدة ومبدأ سياسيا ناضل من أجل تحقيقه، وجاء شعره سجلا حافلا لتطورات الأحداث السياسية في المغرب الكبير وصورة صادقة عن تاريخه "تنتفض بالمشاعر الطافحة فرحا وترحا وآمالا وآلاما، فقد استطاع زكرياء بشاعريته الملهمة أن يبرز من خلال (اللهب المقدس) و(إلياذة الجزائر) الوجه المشرف للجزائر الثائرة وأن يرسم من (ظلال الزيتون) الطلعة المشرقة لتونس عبر مراحل كفاحها، ويستلهم من (وحي الأطلس) نضال المغرب الأقصى قبل الاستقلال وبعده"[35].

لهذا لا غرابة أن يلقب بشاعر الشمال الإفريقي، يقول الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في تقديمه لقصيدة مفدي زكريا التي ألقاها في مؤتمر الطلبة سنة1935م الموسومة ب (أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا): "عنوان القصيدة الرائعة التي ألقاها في مؤتمر الطلبة شاعر الشمال الإفريقي، الأديب الألمعي السيد مفدي زكرياء..."[36]، ومما جاء في هذه القصيدة:

إن الجزائر في الغرام وتونسا والمغرب الأقصى خُلِقْنَ سواء
تَبَّتْ يَدٌ لم ترعَ حُرمة عهدها فَغدت تحاول بينها الإقصاء
نحن العروبة، والشمال بلادنا و به نعيش أعزة كرماء[37]

وفي قصيدة أخرى بعنوان (سوق عكاظ) صادرة بتاريخ27 أوت 1937م، يطرح مفدي قضية المغرب العربي على أنها قضية واحدة، فليس هناك قضية جزائرية، وأخرى تونسية أو مغربية، فما دام الاستعمار موجودا في الأقطار الثلاثة ذات الشعب الواحد، والآمال الواحدة، فمن الواجب أن يكون التصدي له موحدا، "والوطن في مفهوم الشاعر لا يحدّ بحدود قطرية إنما هو المغرب الكبير من أدناه إلى أقصاه، لقد دأب في كل قصائده على رفض الحدود المصطنعة، وتَعوَّدَ في كل شعره أن يستخدم كلمة وطني وهو يريد بها الوطن الكبير"[38]، يقول:

قسموها خديعة لثلاث كذبوا لن تزال شعبا وحيدا
وأقاموا على الهضاب عصيا لقبوها، يا للنفاق، حدودا
والجراحات بينها والأماني و الأمانات لا تزال شهودا

وطني بالدم الزكي أفديـ ك، يمينا شريفة وعهودا
فاتخذنا إذا أردت سيـوفا واتخـذنا إذا أردت وقودا[39]

ومن أجمل صور النزوع الوحدوي القومي الأصيل تلك الصورة التي رسمتها ريشة الشاعر محمد العيد، المفعمة بالعواطف الصادقة تجاه وحدة بين المشرق والمغرب أُسُسُها تاريخية مشتركة يَقْدُمها الدين، ويتبعها الجنس وتَلُم شملها اللغة تجمع بين شعوبها، فتغدو شعبا واحدا، يقول محمد العيد في تأبين الشاذلي خزندار شاعر تونس الكبير مواسيا التونسيين والأمة في فقيدها سنة 1954م :

يا بني الخضراء هذا جهدنا في مصاب كلنا منه حَزانا
كلنا فيه سواء فليكن كلنا فيه معينا، ومُعانا
بورك المغرب من دار لنا بوأتنا من مغانيها كِنانا
نحن فيه أسرة واحدة إخوة دينا وجنسا ولسانا
فتتت الفرقة في أعضائنا إن منها أبدا كل ضنانا
عالجوها باتحاد جامع ناجح المفعول ينفي الشنآنا[40]

وقد رأى أحمد سحنون أن شعوب المغرب العربي في خطر، والوحدة هي طوق النجاة وألقى المسئولية على المعنيين الأساسيين وهم القادة، ولم يجد حرجا أن يتوجه إليهم طالبا توحيد المغرب العربي على أسس متينة قوامها الحب والتعاون، وتوفير أموال هذه الشعوب لنشر العلم والوعي والمعرفة كي يتفرغ لتحرير أرضه ويستعيد أمجاد أمته الضائعة، فيقول:

قادة المغرب، إن لم تسرعوا بتلافي الأمر، فالأمر خطير
وحّدوا المغرب، إن رمتم له قوة، فالموت بالخلف نذير
ثقفوا أبناءه، كي تضمنوا فوزه، فالعلم بالفوز بشير
وَقّروا أمواله، فهي لـه عصمة، والفقر مفتاح الشرور
واجعلوا الحب شعارا بينكم وتناسوا كل حقد ونفور
كيف بالتحرير تحظى أمة طويت منها على حقد الصدور؟[41]

خامسا– الشعر الجزائري والانتماء العربي الإسلامي

لقد تجاوز شعراء الجزائر في العصر الحديث النظرة القطرية الضيقة إلى التغني بالعروبة وطنهم الأكبر، وتلاحموا مع قضاياها وأحداثها، و عبروا عن العواطف المتجاوبة

في المصير المشترك، لأن العناصر الأساسية في تكوين القومية هي وحدة اللغة ووحدة التاريخ وما ينتج عن ذلك من مشاركة المشاعر والمنازع و الآلام والآمال وفي هذا المجال يقول الدكتور عبد الله الركيبي:" إنه من الخطأ الفاضح الاعتقاد بأن الشعب الجزائري كان بعيدا عن ركب العروبة، حتى قامت الثورة المباركة التي أرجعته إلى حظيرتها، بعد أن كاد يغرق إلى أذقانه في بحر الاندماج والذوبان في كيان فرنسا، وأكثر من هذا خطأ الظن بأن الشعر كان بعيدا عن موكب العروبة أيضا"[42].

والحقيقة أن هذه مسلمة لا يشك فيها أحد لأن الشعب الجزائري عميق الإحساس بالقومية العربية التي هي "الشعور والإيمان بوحدة هذه الأمة، وهي تحتم العمل بكل نشاط لإزالة الحواجز القائمة بين أجزائها العديدة لتحقيق الوحدة في كل الميادين بصورة فعلية"[43]. لهذا لم يرض الشعراء الجزائريون أن يقفوا متخاذلين أمام الاستعمار الذي شتت وحدة العرب، وإنما برزت فيهم قابلية التحدي والدليل على ذلك هو أن كل ما تردد من قصائد حول اللغة والقومية "هو التزام بالخط الذي رسمته الحركة الإصلاحية والوطنية بوجه عام، ولكن مع الفرق في الاهتمام، فالذي يركز على الهوية والانتماء يلتقي مع التيار الذي يجعل الاستقلال هدفا والثورة مبدأ، لأن تحقيق الاستقلال هو تأكيد للهوية والانتماء أولا وأخيرا"[44]. لهذا فقد ردد الشعراء كثيرا في قصائدهم انتساب الجزائر للأمة العربية من قبل أن يرسمها ابن باديس رحمه الله بقوله:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب[45]

ولاشك هذه ميزة تفرّد بها شعراء الجزائر عن غيرهم من شعراء المشرق الذين كانت تلهيهم قضاياهم الوطنية عن غيرهم من شعوب الأمة، ولم يتجاوزوها إلا قليلا، "ولا أبالغ إذا قلت إن البعد العربي في الأدب المغربي الحديث كان أكثر وضوحا في الأدب الجزائري، منه في أدب أي قطر آخر من أقطار المغرب العربي، ولعل السبب في ذلك راجع إلى الحرمان الذي كان يحسه الجزائري قبل الاستقلال من ممارسة عروبته في الجزائر، فالجزائري كان يعتبر فرنسيا، والجزائر كانت تعتبر جزء من فرنسا"[46].

لذا فإن شعراء الجزائر لم يقفوا عند حدود القضايا الوطنية بالرغم من الظروف والملابسات التي كانت تحملهم على ذلك، وإنما كان هؤلاء يطرحون القضايا التي تمس

الوطن العربي كله بصورة شاملة، وينظرون إلى القضايا الجزئية في هذا القطر أو ذاك من خلال وحدة المصير في الأمة التي تجمعها عوامل مشتركة هي الدين واللغة والثقافة والحضارة والبعد الجغرافي، "ومما يسجل لهذا الشعر أنه انطلق من بداياته قوميا عربيا إسلاميا، وكان شعراؤه يستجيبون بسخاء واندفاع لكل الأحداث والمواقف المغربية والعربية الإسلامية، ويؤكدون هذا الاتجاه قبل تأكيدهم الخصوصية الجزائرية والوطن الجزائري وذلك على خلاف الشعراء العرب الآخرين الذين كانوا يرتبطون بالوطن أولا، ومن ثم ينزعون النزعة القومية أو الإسلامية"[47].

ولا مراء في أن محمد العيد آل خليفة يعد رائد الشعراء في هذا المجال فقد برع في استلهام الماضي واستنطاق الأمجاد الغابرة وأبرز ما يطالعنا في هذا المجال قصيدته (ختمت كتاب الله التي وردت في جريدة الشهاب سنة 1938م، التي يبدوا فيها أن الشاعر لم يقف عند حدود المناسبة التي استدعت القصيدة، آلا وهي حفل ديني هام ضم نخبة من زعماء الإصلاح، بل اتخذ من هذه المناسبة منطلقا لاستقراء الأبعاد التاريخية والقومية والسياسية للأمة طالبا من الشعب التمسك بماضي الأجداد في مرحلة تميزت بالمسخ والتشويه، ويكشف من خلال القصيدة عن رؤية مستقبلية :

فيا محفلا ما مثله اليوم محفل حوى معشرا، ما مثله اليوم معشر
صِلِ العرب العرباء واحم لسانهم فإنك من أصلابهم تتحدّر
وإن كنت حزب الله سرا وجهرة فثق أن حزب الله لابد ينصر
وثق أن للإسلام غابا كثيرة إذا غاب منها قسور، ناب قسور
وثق أن للتاريخ حكما مؤخرا وكم نسخ الأحكام حكم مؤخر
وثق أن حكم الأرض غير ممهد لمن بات فيها بالهوى يتـأمّر
فمن سامها بالجور، هاج عبادها ولم يحمه منهم سلاح وعسكر[48]

وفي قصيدة أخرى يوسع محمد العيد مفهوم العروبة متجاوزا به الجغرافية، فليس العربي حسب رأيه هو من ينتمي للعرب أصلا وجنسا، وإنما العربي هو من تكلم العربية ودافع عنها سواء أكان هذا العربي من العرب العاربة أو من العرب المستعربة "أولئك الذين دخلوا في الإسلام وانتموا لحضارته واستعربوا وأسهموا في الحضارة ونشروا لغتها ومجدها فهؤلاء جميعا في نظر الشاعر ينتمون إلى القومية العربية"[49]. يقول محمد العيد في قصيدة (إلى العلم):

و ما نحن إلا من سلالة يـعرب فمن رام عنها فصلنا بـاء بالرغم
سلام كأزهار الربى طيب الشذى على كل قحٍّ في عروبـته شهم
على العرب الأحرار من كان عاربا ومن باد قِدما من "جديس ومن طسم"
ومن كان في استعرابه لاحقا بهم نزوعا إليهم في الفصـاحة والفهم
لقد رفعوا رأس العروبة عـاليا سلام عليهم في البداءة والختم[50]

وهذه النغمة القومية نفسها نجدها عند مفدي زكريا في قصيدته (على عهد العروبة سوف نبقى) التي ألقاها بالدار البيضاء بالمغرب سنة 1955م، في حفل أقيم لتكريم وفود الدول العربية التي قدمت إلى المغرب لتهنئة الشعب والملك بعيد الاستقلال، يقول فيها:

رسول الشرق قل للشرق إنا على عهد العروبة سوف نبقى
وإما بالجزائر أنـكرونا سنخرق وصمة الإجماع خرقا
لقد زعموا الجزائر من فرنسا ورامو مزجها سفها وحمقا
سيعرف الزمان غدا بأنـا سبقنا وثبـة الأقدار سبقا
وأنا في الجزائر خير شعب عروبته مدى الأجيال وثقى[51]

وفي قصيدة أخرى يتحدث مفدي زكريا عن الصراع المستميت الذي يبذله الشعب الجزائري في محاربة سياسة الاستعمار الإدماجية من أجل الحفاظ على انتمائه العربي الإسلامي، الذي يحتم العمل بكل نشاط لإزالة الحواجز المصطنعة، هذا الصراع يتجلى في حفظ اللغة العربية "أكبر عوامل القومية العربية التي تجمع الشعب العربي الممتد من المحيط الأطلسي غربا إلى الخليج العربي شرقا"[52]، هذه اللغة التي صمدت رغم المحن والأرزاء، يقول في قصيدة (اقرأ كتابك) من زنزانته في سجن البرواقية سنة 1958م:

واستدرجوه، فدبروا إدماجـه فأبت عروبته له أن يبلعا
و عن العقيدة، زوروا تحريفه فأبى مع(الإيمان) أن يتزعزعا
وتعمدوا قطع الطريق، فلم ترد أسبابـه بالعُرب أن تتقطعا
نسب بدنيا العرب زكى غرسه ألم، فأورق دوحه وتفرعا
تلك العروبة إن تثر أعصابها وهن الزمان حيالها وتضعضعا
الضاد في الأجيال خلّد مجدها والجرح وحّد في هواها المنزعا[53]

وفي ظل الثورة وفي أحلك الظروف "يفتح هذا الانتماء آفاقا جديدة، إذ يتسم بالشمول، فتتعمق مضامينه وتتوسع أبعاده، حتى يستجيب لطموح العرب في تحقيق

وحدتهم الكبرى التي تشيدها الشعوب لا الحكام، ولا عجب أن نجد مثل هذا الوعي في الشعب الجزائري، فتأكيد عروبة الجزائر وانتمائها كانت من بين دواعي ثورتها"[54]، يقول صالح خباشة:

لقد انتظمنا أسـرة عربية مذ شع فينا الوحي والإلهام
كم صوب المستعمرون سهامهم فإذا صدور المعتدين مرام
كم حاولوا تقسيم جسم واحد ويعز أن تنقسم الأجسام
ما خطه الشعب العظيم لنفسه سيكون لا ما خطه الحكام[55]

ومن أقوى مظاهر تعلق شعراء الجزائر بالانتماء العربي الإسلامي والدفاع عن هذا الانتماء، أنهم لا يتركون فرصة يرتفع فيها صوت ينادي بهذا الانتماء بشكل أو بآخر إلا واهتزوا لذلك طربا وتغنوا به شعرا، فحين أعلنت أول تجربة للوحدة بين مصر وسوريا عام 1958م كانت فرحة الشاعر الجزائري كبيرة تعبر عن مدى تفاعله مع طموح العرب في بناء وحدة شاملة، يقول صالح خباشة في الذكرى الخامسة للثورة في قصيدة (شعب لا يلين)[56] التي ألقاها في الجمع الحافل بكلية الآداب ب(بغداد) سنة 1959م:

بردى إلى النيل المرحب، أقرب يا ليت دجلة في اللقا لا تكذب
فالدولة العظمى، بنينا أسـها والراية الكبرى رعاها الموكب
والأرض بالنغمات أطربت السما فتجاوبت حور هنالك أطرب[57]

لقد جاهر الشعراء الجزائريون بتسخير نتاجهم الأدبي لمعالجة شؤون عصرهم ومشاكله، ووقفوا سدا منيعا في وجه كل محاولات الاستعمار الرامية إلى تحطيم الشخصية الجزائرية ودفع المجتمع إلى الذوبان في مقومات الحضارة الغربية، وحافظوا على أواصر الجزائر العربية الإسلامية، من خلال مد جسور التآخي بين الشعوب العربية.

سادسا – الشعر والوحدة العربية

إن بوادر الوعي القومي والشعور بوحدة المصير المشترك قد تبلورت في المجتمع الجزائري بظهور الحركة الإصلاحية وتحديد أهدافها المرحلية، التي كانت تقوم على تأكيد عروبة الجزائر وإسلامها، وتثبيته بالعمل اليومي الميداني من خلال مؤسساتها، كالمدارس والأندية والجمعيات، والعمل على نشر الوعي الذي يتجلى في الارتباط بِمُثُلِ العرب والمسلمين، والاقتداء بتاريخهم "نجد كذلك أن الحركة الشعرية قد اعتبرت الشرق العربي مصدر العلم والمعرفة، لتأكيد صلة التراحم بين العرب، ولعل مردّ هذا الشعور يعود إلى ما

كانت تتمتع به الحركات الإصلاحية من نفوذ شعبي، وما كانت تطرحه من آراء ومواقف فكرية ذات تأثير على حركة النهضة في الوطن العربي"[58]. وليس أكثر دلالة على ذلك مثل هذه الأبيات للشاعر محمد العيد من قصيدة بعنوان (يا شباب) ألقاها في افتتاح مدرسة بسكرة سنة 1947م:

إنما الشرق نسبة العرب الأحـ رار لم تنقطع لها أسباب
إنما الشرق للعروبة كهف آمن الظل بالأذى لا يصاب
إنما الشرق للعروبة وكر من بنيها تؤمه أسراب
إنما الشرق للعروبة ورد بارد الماء سائغ مستطاب[59]

وكانت الوحدة العربية حلما كبيرا يراود شعراء الجزائر، فكانوا يستغلون كل مناسبة للحديث عن زمن يصبح فيه العرب شعبا واحدا ترفرف على ربوعه راية واحدة تحمل شعار الجهاد، وحينها يمكن تحقيق النصر الذي طال انتظاره، يقول محمد الأخضر عبد القادر السائحي في قصيدة (خوطر) الصادرة ببانتة سنة 1953 م:

أعيد الضحى إن نهارك واحـد وأنك تبدو في شتيت، فما السر؟
فعيد بأرض الشرق أوطانه كـثر وعيد بأرض الغرب ليس له حصر
أعيد الضحى هل فيك تجديد ما مضى بأيـة حال يسترد بها النصر؟
وهل فيك توحيد لأرض عروبـة به يصبح العربان شعب لـه قدر؟
و نرفع رايات البلاد برايـة عليها تباشير الجهاد، بها الفخر
أعيد الضحى هاتيك أحلامنا، فما لنا عمل إلا لها.. أو لنا القبر[60]

والوحدة العربية تعني وحدة المصير المشترك الذي يقوم على رفض التجزئة بين الأقطار العربية من الناحية الجغرافية أولا، لأنها حدود مصطنعة وضعها الاستعمار، كما أن هذه الوحدة دليل على قوة العرب في مواجهة الخطر المشترك الذي يتهددهم، تُقَوِّي سواعدهم وتحقق طموحهم تجاه قضاياهم المصيرية في الصراع مع الاستعمار ومع الصهيونية التي تعتبر أداة من أدوات الاستعمار.

وتطالعنا في الشعر الجزائري نماذج كثيرة في هذا المجال، من ذلك هذا النص لأبي القاسم خمار، يتحدث فيه عن عروبة الجزائر وانتمائها الذي كان من أهم عوامل تفجير ثورتها، و عن سعي فرنسا إلى ضم الجزائر إليها، وادعائها أن الجزائر ملحقة بها،

مبينا أن الجزائر عربية مسلمة منذ القدم لا يربطها بفرنسا لا لسان ولا دين ولا جنس، وإنما هي عربية موغلة في التاريخ العربي وكل شيء فيها يؤكد ذلك:

قالت فرنسا وما في القول من عجب إن كان من قاله في مخه ورم
إن الجزائر مذ كانت جزائرها جزءا بنا من وراء البحر يلتئم
وأشعلت نارها غيظا، لتسألنا لم الجزائر هذا الجزء ينفصم؟
فدمدمت أرضنا بالرعد تخبرها إن الجزائر لا غرب ولا عجم
فلا لسان، ولا دين يوحدنا ولا دماء ولا أرض ولا رحم
من العروبة من قحطان منبتنا ويشهد الذود والإقدام والهمم
نعم جزائرنا جزء، ومغربنا لكنها في بلاد العرب تلتئم[61]

وكانت الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958م، فاستجابت جماهير الأمة العربية لهذه الوحدة، واستبشرت بها خيرا ورأت فيها بداية الخلاص من التفرقة ومن الاستعمار، لأنها توحد طاقات الأمة، وتكون النواة لوحدة عربية كبرى تكون قادرة على إخراج العدو وصد الأعداء، يقول صالح خرفي في قصيدته (النيل وبردى):

سوريا ومصر، يَدُ تَضُمُّ على يَدٍ يا وحدة هزت كيان المعتدي
يا وحدة غنى لها في الأطلس الجبا ر ثائر شعبه المستعبد
فتعانقا وتعانقت لهما ملايـ ين تميد بها قوى التمرد
والفرحة الكبرى، غداة الوحدة ال كبرى، فيا رباه عجل بالغد[62]

وإذا كان مفدي زكريا هو الآخر يدعو إلى الوحدة العربية باعتبارها سلاحا ضد الاستعمار، فإن هذا لا يعني أن دعوته مؤقتة تنتهي باستقلال الشعوب ونيلها حريتها، بل على العكس فإن مفدي ينظر إلى الأمة من خلال وحدة المصير في الضراء وفي السراء، ومن هذا المنطلق يرى أن استقلال تونس والمغرب دون الجزائر، يعتبر استقلالا ناقصا ذا أثر سلبي عليهما، إذ لابد من استقلال الجزائر ليتم استقلالهما ما دام الجميع مرتبطا بآمال وآلام مشتركة "ويعبّر عن ذلك بطريقة طريفة، هي أن المغرب العربي صقر يملك جناحين سليمين (تونس والمغرب المستقلتين) لكن قلبه متصدع معتل (الجزائر المحتلة)، والنتيجة أن الصقر لن يستطيع الحركة والتحليق بدون قلب، بل لابد من سلامة قلبه لتكتمل قوته ويطير"[63]، فيقول في الذكرى الثالثة لعيد الجمهورية التونسية سنة 1960م:

وفي المغرب الجبار شعب مكافح تسانده الدنيا وتسمو به الحرب

على خافقيه تونس ومراكش تحاول تحليقا، فيثقلها الخطب
جناحان في صقر تصدع قلبه وكيف يطير الصقر ليس له قلب[64]

سابعا – الشعر وقضية فلسطين

على الرغم من محنة الشعب الجزائري والجدار الذي ضربه حوله الاستعمار فإن الشعراء الجزائريين لم يتخلوا عن فلسطين، وإن النتاج الشعري الذي قيل فيها كثير جدا، فهناك الكثير من الشعراء الذين رافق شعرهم قضية فلسطين في مختلف أطوارها، وكانوا يستغلون كل مناسبة للدفاع عنها.

ففي عام 1936 م، قامت الثورة الفلسطينية، وكادت تقضي على النفوذ الإنجليزي والوجود الصهيوني؛ بدأت الثورة بإعلان الإضراب العام في جميع أنحاء فلسطين العربية تعبيراً عن سخط الشعب الفلسطيني عن الانتداب البريطاني والدولة اليهودية المقترحة، وسرعان ما تحول الإضراب إلى ثورة علنية مسلحة، وتوافد المتطوعون من البلاد العربية المجاورة، واهتاج الرأي العام العربي في مختلف الأقطار العربية، وشعرت السلطات البريطانية بالخطر، فاستخدمت الدبابات والطائرات في قمع الثوار، وأخذت تنكل بالأحرار من أبناء فلسطين فأحس محمد العيد آل خليفة بالخطر على هذا الجزء من الوطن العربي، وأدرك أنَّ يد بريطانيا وراء كل مؤامرة تعرضت لها فلسطين فكتب قصيدته (بني التاميز) التي يهاجم فيها الانجليز، ويكشف جورهم، وتآمرهم على القدس، ويتصور ما يترتب عن هذا الظلم التاريخي من ثورات تجري فيها دماء، لأن العرب لن يسكتوا عن هذا المنكر، ويتحسّر على البطولات العربية القديمة نظرا لما حلَّ بأولى القبلتين، يقول :

بنَي (التَّاميز) قَدْ جُرْتُمْ كَثيراً فهَلْ لكُمْ عَنِ الْجَوْرِ ازْدجَارُ ؟
أفي أَسْواقِكُمْ نَصباً وغَصْباً تَسومُ (القِبْلَة) الأُولى التّجَارُ

إخَالُ (القِبْلَةَ) انْسَجرتْ دمَاءً كَمَا لِلْبَحْرِ باللُّجج انْسِجارُ
تَرَوْنَ لَهَا سوَى العَرَبِّي أَهْلاً وتَأْبَى التُّرْبُ فِيهَا والْحِجَارُ
فَلَيْسَ لَهَا بِلاَ فَمه لِسَانٌ وَلَيْسَ لَهَا بِلاَ دَمه نِجارُ
أَلَمْ يُؤْلِمْكُمُ حَرَمٌ مُبَاحٌ وشَعْبٌ يَسْتَجِيرُ ولا يُجارُ
إِذَنْ فالحَرْبُ لِلْعَرَبِّي دَأْبٌ وَهَلْ تَخْفَى (الْبَسُوسُ) أو)الْفِجار

شَـدَدْتُمْ قَهْرَهُ فَعَلَا انْفِجارًا وعُقْبى شِدَّةِ القَهْرِ انْفِجـارُ (65)

من خلال هذا النص يتحدث محمد العيد عن فلسطين وكأنها "قضية الشعب الجزائري بكل ما يعانيه من كبت وعزلة، وكانت الحروب التي تدور في فلسطين تحفّز الجزائريين وتدفعهم إلى التطوع والتبرع وحمل السلاح، كما تدفع بالشعراء إلى تبني هذه المعارك"(66).

ويتجلى موقف الشاعر الداعم لفلسطين في الربط بين قضيتها وبين حال بلاده وحال أمته كلما سنحت له الفرصة، وأتيحت المناسبة ففي قصيدة (بلادي) التي ألقاها سنة 1937م في إحدى حفلات مدرسة الشبيبة بالجزائر، بعدما تحدث عن واقع بلاده وما يتطلبه من تعبئة وشحذ للنفوس، عرّج على حال الأمة موازنا بين ماض زاهر، وحاضر تعيس، ليخلص إلى حال المقدس التي تئن تحت وطأة بني صهيون، معلقا الأمل على الله الذي سيحيي هذه الأمة فيقول:

بلادي فداك الروح والله عالم عليك سلام خاص القصد سالم
هلم نذد عنها نسورا حوائما عسى تنجلي عنها النسور الحوائم
وفي تونس الخضراء شمل مبدد وفي المغرب الأقصى أذى متفاقم
وفي المقدس الباكي الحزين فضائع توالت وأنكاد طغت ومآثم
بلى سوف يحيي الله كل ربوعها فتزكوا بواديها وتزهو العواصم(67)

ولم يكتف محمد العيد بمجرد التأييد والتعبير عن التضامن مع القضية الفلسطينية، بل يغيّر لهجته من التضامن إلى التهديد والوعيد، بأن فلسطين محاطة بالكثير من الجند الذي ينتظر صرخة الاستغاثة ليندفع نحو القدس، مسترخصا النفس يدفع عنها كيد الكائدين، يقول في قصيدته (فلسطين العزيزة) التي نظمها سنة 1367 :

فَلَسْطينُ العزيزةُ، لاَ تُراعِي فَعَينُ اللهِ رَاصِدةٌ تُراعِي
وحَوْلَكِ مِنْ بَنِي عَدْنانَ جُنْدٌ كَثِيرُ الْعَدِّ يَزْأَرُ كَالسِّباعِ
إذا اسْتَصْرَخْتِه لِلْحَرْبِ لَبَّى وخَفَّ إلَيْكِ مِنْ كُلِّ الْبِقاعِ
يَجودُ بِكُلِّ مُرْتَخَصٍ وغَالِي لِيَدْفَعَ عَنْكِ غَاراتِ الضِّباعِ (68)

أما الشاعر مفدي زكرياء، ففي الذكرى الثالثة عشر لتقسيم فلسطين كتب قصيدة شعرية طويلة بعنوان (فلسطين على الصليب) في شكل حوار بين الشاعر وفلسطين

والعرب، اعتبر فيها العدوان على فلسطين اعتداء على العروبة كُلّها، وحمّل العرب مسؤولية ضياع فلسطين، فقد باعوها وانحدروا بها للهاوية وهم في غمرة سكر، والقصيدة تتميز بالجرأة الشديدة "والصراحة الجارحة، والنقد اللاذع الهادف إلى تصحيح الأخطاء، ويطغى عليها أسلوب التحليل واستقراء الأوضاع، وتحديد الأسباب، واقتراح الحلول بعيداً عن ترديد الشعارات الرنانة الجوفاء"[69]، يدق في هذه القصيدة ناقوس خطر الاحتلال الصهيوني لفلسطين، ويحث على الجهاد، وعلى رصّ الصفوف لمواجهة العدو، يقول :

أُناديكِ، في الصَّرصَرِ العاتِيَهْ وبَيْنَ قَواصِفِها الذّارِيَهْ
وأَذْكُر جُرْحَكِ، في حَرْبِنَا وفي ثَوْرةِ المغرِبِ القانِيَهْ
فَلَسْطِينُ.. يا مهبطَ الأَنْبيأ ويا قِبْلَةَ العُرْبِ الثانِيَهْ
فَلَسطينُ.. والعُرْبُ في سُكْرَةٍ قد انْحَدَرُوا بِكِ لِلهاوِيَهْ
وَصَبَّ بِكِ الغَرْبُ، أَقْذَارَهُ وَرِجْسَ نفَايَاتِه الْباقِيَهْ
وحَطَّ ابنُ (صهيونَ) أَنْذَالَهُ بِأَرْضِكِ، آمِرةً ناهِيَهْ[70]

ويستطرد الشاعر مسلطا الضوء على ما آلت إليه فلسطين، "فقد انقلبت الأوضاع، وذُلَّ العزيز، وعزَّ الذليل، وأصبحت فلسطين تبكي، وما يبكيها إلاّ الذين كانوا قد اتخذوا حائطا يتباكون فيه ويستدرون عطف الناس"[71]:

بكيتِ، فَلَسْطِينُ، في حَائِطٍ بِهِ – قَبْلُ – قَدْ كانتِ الْبَاكِيَهْ
فَيالَكَ مِنْ مَعْبَدٍ نَجَّسُوا حَنَاياهُ بِالسُّوْءَةِ الباديَهْ
وَ يَالَكَ مِنْ قِبْلَةٍ كَدَّسُوا بِمِحْرابِهَا الجيفَ البالِيَهْ
وَ يَالَكَ مِنْ حَرَمٍ آمِنٍ جيَّاعُ ابنِ آوَى بِهَا عَاوِيَهْ[72]

وما كانت فلسطين لتضيع لو أن العرب وصلوا أسباب بقائها، ولم يتركوها لِشُذاذ الآفاق يقيمون فوقها، لذا فهي تتحدث على لسان الشاعر، وتحمل العرب مسئولية ضياعها، فقد تركوها لسماسرة العالم في وضع مخزٍ، يتاجرون بها فهي تباع في السوق لشرِّ الناس، والعرب في سكرتهم، لم يعملوا على إنقاذها وتسليح شعبها كما فعل الإنجليز مع الصهاينة، فيقول:

لَقَدْ كانَ لي سَبَبٌ لِلْبَقَا فَقَطَّعَ قَوْمي، أَسْبابِيَهْ
ورُحْتُ أُبَاعُ، وأُشترَى كَما تُباعُ لجزارها، الْماشِيَهْ
وفَرَّقَنِي (الخُلْفُ) أيْدِي سَبَأ وشَتَّتَ في الأَرْضِ أوصالِيَهْ

وَفِي سُكْرَةٍ ضَيَّعُوا عِزَّتِي وَلَمْ يُغْنِ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ
فَلاَ أَنَا حَقَّقْتُها بِيَدِي وَلا سَلَّحَ العُرْبُ أَبْنَائِيَهْ [73]

ومن يسبر المتن الشعري الجزائري يجد أن فلسطين لا تبرح خواطر الشعراء الجزائريين، فهي في أذهانهم في كل وقت، يذكرونها في كل مناسبة ففي الجزء الأول من ديوان الشاعر أحمد سحنون، ثلاث قصائد حول مأساة فلسطين هي: (فلسطين) نشرت بالعدد 8 بالبصائر بتاريخ 22 صفر عام 1367هـ. والثانية (من وحي المأساة) مأساة قتل الأخ أخاه في النزاع الدموي بين فلسطين والأردن وبين فلسطين ولبنان. والثالثة (فلسطين إنا أجبنا الندا)[74]. فقد تأثر هو الآخر بفكرة تقسيم فلسطين من قبل الإنجليز بين الصهاينة والعرب سنة1947 م، تنفيذًا لمؤامرة صهيونية بريطانية، يقول في قصيدة (فلسطين) يحذِّرُ الفلسطينيين من قَبولِ هذا التقسيم، ويدعوهم إلى الثورة، وألا يسمعوا إلا لنداء الجهاد، فَخَلْفَهم من بني يعرب الكثير من الجند الذي ينتظر الإشارة للنفير:

أَمَوَاطِئَ أَقْدَامِ النَّبيين والرُّسل ومَوْطِنَ نَسْلِ الوَحْيِ بُورِكَ من نَسْلِ
فَدَاكَ الْعِدَى لا تَقْبَلي قِسْمَةَ الْعِدَى وللْموت سيري لا تَبِيتي عَلَى ذُخْلِ
وخَلْفَكِ جَيْشٌ مِنْ بَنِي الْعُرْبِ رَابِضٌ لِيُبْعِدَ عَنْ أَرْضِ الْهُدَى عَابِدي العجل
لَقَدْ جدّ جدُّ العربِ فَاقْتَحِمُوا الْوَغَى وَ لا تَدْفَعُوا جِدَّ الحَوادثِ بِالْهَزْلِ[75]

وللشاعر الشهيد الربيع بوشامة قصيدة موسومة ب (صوت الجهاد) وهي عبارة عن نشيد حماسي يحث فيه الشباب على الدفاع عن فلسطين التي تستغيث، تكررت فيها كلمة الجهاد عدة مرات، ويتجلى الالتزام السياسي في القصيدة في أن معانيها كغيرها من القصائد في هذه الفترة تدور عن الجهاد ومقاومة الصهيونية، و التنديد بالحرب والإشادة بشجاعة العرب[76]:

فلسطينُ أَرضُ الهُدى والْمَعادِ تُنادي الجهاد، الجهاد، الجهادِ
فَتَى الْعُرْبِ هَيَّا فَلَبِّ النِّدا وَلاقِ الْمَنايَا بِساحِ الفِدا
وَنَكِّلْ بِصَهْيون شَرَّ الْعَبيدِ وَأَطْعِمْهُ نَارًا وَسُمَّ الْحَديدِ[77]

خاتمة

هذا جزء من رسالة الشاعر الجزائري في فترة الحركة الوطنية، فقد ترك الواقع السياسي بصماته على الشعر، وفي ظرف كهذا، تصبح وظيفة الشعر سياسية ينظر إليه

(الشعر) في إطار الدور الذي يقوم به، وهو مواكبة النشاط السياسي للحركة الوطنية وللثورة و للقضية الجزائرية ومسايرتها عبر مراحلها المختلفة.

لهذا كان الشعر حاضرا في معظم الأحداث السياسية زمن الحركة الوطنية الجزائرية، حيث شارك الشعبَ آلامه وآماله، وعبر عن مآسيه، وكان له موقف من القضايا الوطنية، وتخطى الحواجز والأسوار التي وضعها الاستعمار وكان له رأي في القضايا العربية والإسلامية.

الاحالات والمراجع

(1) – صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص187.

(2)– عمر أحمد بوقرورة: دراسات في الشعر الجزائري المعاصر (الشعر وسياق المتغير الحضاري)، دار الهدى عين مليلة، قسنطينة، الجزائر، 2004، ص10.

(3) – يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار البعث، قسنطينة ط1987،1،ص37.

(4)– عبد العزيز المقالح: قراءة في أدب اليمن المعاصر، دار العودة، بيروت، لبنان ، ص20.

(5)– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص113.

(6)– جاسم االسعدي: الشعر الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة(دراسة)، منشورات التبيين الجاحظية بدعم من وزارة الثقافة، الجزائر 2002، ص 59.

(7)– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، الملحق ص 19.

(8)– المرجع نفسه، الملحق، ص19.

(9)– ينظر: حواس يري شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص46.

(10)– مفدي زكرياء: اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2000، ص268.

(11)– المصدر نفسه، ص269 .

(12)– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص202.

(13)– محمد العيد آل خليفة، الديوان، مطبعة البعث، ط1، عين مليلة، قسنطينة، الجزائر، 1967، ص299.

[14]– عمر أحمد بوقرورة: دراسات في الشعر الجزائري المعاصر (الشعر وسياق المتغير الحضاري)، ص13.

[15]– المرجع نفسه، ص14.

[16]– محمد العيد آل خليفة ، الديوان، ص294.

[17]– المصدر نفسه، ص 307.

[18]– العربي دحو: قراءات في ديوان العرب الجزائري، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2006، ص85.

[19]– أبو الحسن علي بن صالح: الديوان (مآسي وأين الآسي) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص43.

[20]– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص140.

[21]– المصدر نفسه، ص،143–144.

[22]– المصدر نفسه، ص 202.

[23]– المصدر نفسه،ص 16.

[24]– محمد الشبوكي: الديوان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار، الرويبة، الجزائر، 1995، ص 13.

[25]– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص176.

[26]– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص97.

[27]– المصدر نفسه، ص120.

[28]– سلمان نور: الشعر الجزائري في حاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1981، ص171.

[29]– عثمان بن الحاج: قصيدة (نحن والربيع) جريدة الشهاب، ج1، م11، غرة محرم 1354هـ، 5 أفريل 1935، ص57.

[30]– صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص179.

[31]– حسن حموتن قصيدة (الانتخاب) جريدة البصائر عدد231 ليوم الجمعة 16 رمضان 1372هـ، الموافق ليوم: 29 ماي 1953، ص5.

[32]– ينظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص264.

[33]– مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص266.

[34]– المصدر نفسه، ص267.

(35)– محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، المطبعة العربية غرداية، الجزائر، 1984، ص41-42.

(36)– مفدي زكرياء: أمجادنا تتكلم، ص131.

(37)– المصدر نفسه، ص132.

(38)– محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، ص59.

(39)– مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم، جمعه وحققه: مصطفى بن الحاج بكيرة حمودة، نشر مؤسسة مفدي زكريا والوكالة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 2003، ص 149.

(40)– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص481.

(41)– أحمد سحنون: الديوان، ج1، منشورات الحبر، تعاونية عيسات إيدير، ط2، الجزائر، 2007، ص112.

(42)– عبد الله الركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، الدار القومية للطباعة والنشر، ص42.

(43)– إسحاق موسى الحسيني: الأدب والقومية العربية، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر 1966/1965، ص16.

(44)– عبد الله ركيبي: الأوراس في الشعر العربي، ص50.

(45)– عبد الحميد ابن باديس الآثار، ج1، م3، إعداد وتصنيف: عمار الطالبي، الشركة الجزائرية لصاحبها عبد القادر بوداود، ط3، الجزائر، 1999، ص571.

(46)–عثمان سعدي (دور الشعر بالجزائر في بث الوعي القومي) بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي أعدها ونظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، ديسمبر 1980، ص385.

(47)– محمد صالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل والطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2005، ص32.

(48)– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 159.

(49)– عبد الله ركيبي: الأوراس في الشعر العربي، ص56.

(50)– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 205.

(51)– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص 122-123.

(52)– إسحاق موسى الحسيني: الأدب والقومية العربية، جامعة الدول العربية، ص17.

(53)– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص59-60.

(54)– عبد جاسم السعدي: الشعر الوطني الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة، منشورات التبيين، الجاحظية، 2002، ص84.

(55)– صالح خباشة: الروابي الحمر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص140.

(56)– المصدر نفسه، ص136.

(57)– المصدر نفسه، ص 83.

(58)– عبد جاسم السعدي: الشعر الوطني الجزائري بين حركة الإصلاح والثورة، ص76.

(59)– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 259.

(60)– محمد الأخضر عبد القادر السائحي: ألوان من بلادي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص22–23.

(61)– أبو القاسم خمار: ظلال وأصداء، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت)، ص 110.

(62)– صالح خرفي: ديوان أنت ليلاي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص125.

(63)– يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص134.

(64)– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص181.

(65)– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص374.

(66)– أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف، ط2، مصر، 1968، ص 191–192 .

(67)– محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص135–138.

(68)– المصدر نفسه، ص 334.

(69)– يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، دراسة فنية تحليلية، ص138.

(70)– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص337.

(71)– يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، دراسة فنية تحليلية، ص139.

(72)– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص338.

(73)– المصدر نفسه، ص341.

(74)– أحمد سحنون: الديوان،ج1، ص120–124.

(75)– المصدر نفسه، ص120–121.

(76)– عبد الله ركيبي: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص65.

(77)– الربيع بوشامة: الديوان، جمع وتقديم: جمال قنان، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الرويبة، الجزائر، 1994، ص177.